

23- إثبات صفة الكلام لله تعالى

{ وَقَوْلُهُ: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } [النساء: 87]. { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } [النساء: 122]. { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ { [المائدة: 116]. { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } [الأنعام: 115]. { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء: 164]. { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ } [البقرة: 253]. { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } [الأعراف: 143]. { وَتَادِيبُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } [مريم: 152]. { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الشعراء: 10]. { وَتَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلْمَ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ } [الأعراف: 22]. { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص: 65]. [الشرح * قوله: (وقوله: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا }). عقيدة أهل السنة أن الله تعالى متكلم ويتكلم إذا شاء، وأن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، واستدلوا بالعقل والنقل، فأما العقل فإن كل ذي عقل مفطور على أن الله من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، وأن فقد الكلام نقص وعيب، وبدل على ذلك أن الله عاب معبودات المشركين بأنها ناقصة لأجل ذلك، فذكر في عجل بني إسرائيل الذي عبده بعد موسى نقضه بنفي الكلام عنه، فقال تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } [الأعراف: 148]. فدل على أنه ناقص لكونه لا يكلمهم، فيدل أن المعبود الحق، وهو الله ليس كذلك، بل موصوف بأنه يتكلم. ولما حطم إبراهيم الخليل آلهة قومه عابها بأنها لا تتكلم، فقال: { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ } [الأنبياء: 63]. فاعترفوا بقولهم: { لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفِقُونَ } [الأنبياء: 65]. ولما خاطب الآلهة قال لها مستهزئا: { مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفِقُونَ } [الصفات: 92]. قال تعالى: { فَتَرَاغَى إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ آَلَاءِ تَأْكُلُونَ } [الصفات: 91]. فلما لم يستجيبوا له، قال: { مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفِقُونَ فَتَرَاغَى عَلَيْهِمْ صَرَخًا بِالْيَبِينِ } [الصفات: 92، 93]. فالخاص أن من نقص ما يعبد من دون الله أنه لا يتكلم؛ أنه مسلوب هذا الوصف، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال؛ ولهذا كلف الله من يتكلم، فالجن والإنس والملائكة والشياطين مكلفون، وعليهم الأوامر والنواهي والحساب والعقاب والعداب والثواب؛ لأنهم يتكلمون وينطقون ويعقلون، ولم يكن هذا التكليف على الدواب ولا على بهيمة الأنعام، وكذلك الحشرات والصيد البرية وما أشبهها، لما كانت بهيمة لا تتكلم، لم يكن عليها تكليف لأنها ناقصة، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال، هذا من حيث العقل. أما من حيث النقل، فعندنا الآيات، وعندنا الأحاديث - كما سيأتي بعض منها بعد هذا الفصل - وهي قد دلت على صفة الكلام بعدة دلالات: الدلالة الأولى: بصفة الحديث: فمعلوم أن الكلام يسمى حديثا، تقول: حدث فلانا يعني: كلمته، وتحدثت مع فلان، وفلان وفلان يتحدثان، والقوم يتحدثون يعني: يتكلمون، فالكلام حديث، وسمي حديثا لأنه يحدث شيئا فشيئا، يعني: يتجدد، تحدث الكلمات حرفا بعد حرف، وكلمة بعد كلمة، فهذا سبب تسميته حديثا، والله تعالى قال: { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبْ يَهْدِ الْحَدِيثَ } [القلم: 44]. يعني: بهذا القرآن؛ لأنه كلام، وقال تعالى في الآية التي في سورة النساء: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } [النساء: 87]. والحديث هو الكلام، أي: من أصدق من الله كلاما، فهذا دليل واضح وهو إثبات الحديث، وهو من أسماء الكلام. الدلالة الثانية: إثبات القول والقبيل: والقول: صريح في النطق، قال بمعنى نطق، فالقول لا تعرفه العرب إلا للكلام، وإن كانوا قد يطلقونه على الأفعال، ولكنهم يريدون بذلك الحكاية؛ كأن يقولوا: قال بيده هكذا، ولا بد في ذلك من الإشارة، فالقول هو النطق، وهو الكلام. وقد دل عليه القرآن في عشرات المواضع أو مئات المواضع كثيرا ما يقول: (قال الله) أو (والله يقول) وما أشبه ذلك، كقوله تعالى: { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْخُرِي نِعْمَتِي عَلَيْكَ } [المائدة: 110]. وكقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ } [المائدة: 116]. { قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُمَرِّئُهَا عَلَيْكُمْ } [المائدة: 115]. { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } [المائدة: 119]. { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [الأحزاب: 4]. وأشبه ذلك كثير. وكذلك جاء بالمصدر في هذه الآية التي سبقت، وهي قوله تعالى: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } [النساء: 122]. يعني: قولا، يعني: لا أحد أصدق من الله مقالا، فالقبيل والقول بمعنى الكلام الصريح، فدل على أن الله موصوف بأنه يتكلم ويقول كما أثبت ذلك لنفسه. والدلالة الثالثة: دلالة التسمية: تسميته كلاما، أو تسمية ما جاء عنه كلاما، والأدلة عليه كثيرة، والعرب لا تعرف الكلام إلا للنطق، يقولون: هذا كلام فلان، يعني: ما تكلم به وما تلفظ به، وقد استعمل ذلك في نظمهم وشعرهم، وكذلك استعمله النبي - صلى الله عليه وسلم - في أحاديثه، ومنه قوله عليه السلام: { أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد } أخرجه البخاري رقم (6147) كتاب الأدب ومسلم رقم (2256) كتاب الشعر. فسميها كلمة مع أنها نطق. فكذا قوله في كثير من الآيات، كما في سورة الأنعام: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لِمَبْدُلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنعام: 115]. قرأها بعضهم: "وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته" ومعنى "تمت" أي: ثبتت وحققت، فلا تبدل ولا تغير، فلا مغير لأمر الله وقضائه وقدره، كما وردت مثل هذه الآية في آخر سورة هود، في قوله تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود: 119]. وفي سورة السجدة: { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة: 13]. فدل على أن "كلمة" اسم للكلام، يعني: وجب وحق وثبت كلام الله الذي تكلم به، وهو إشارة بأنه سبحانه الحق ويبطل الباطل، وأنه سبحانه سيغضب هؤلاء، وينعم هؤلاء، فلا مغير لما قاله ولا مبدل للكلمات الله. ومن الأدلة أيضا على إثبات الكلام: تكليمه تعالى لبعض عباده، وقد أثبت ذلك لموسى في عدة آيات منها، قوله في سورة النساء: { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء: 164]. أكده بالمصدر، وهو قوله { تكليما } . روي أن بعض المعتزلة جاء لأبي عمرو القاري وقال: أحب أن تقرأها بنصب "الله" أن تقرأها (وكلم الله موسى تكليما) ، أراد هذا المعتزلي أن يكون موسى هو الحكم لا الله، فقال له أبو عمرو هب أني قرأتها كذلك، فكيف تصنع بقول الله تعالى - يعني: في سورة الأعراف - { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } [الأعراف: 143]. فسقط في يدي ذلك المعتزلي، حيث إن الآية التي قالها لا تحتل التأويل: { وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } { فكلمه موسى } فكلمه هو ربه، فالكلام هو النطق، يعني: سميع كلام الله كما يسمع كلام غيره إلا أن كلامه لا يبيته كلام غيره من المخلوقات. كذلك أيضا أثبت الله لموسى أنه كلمه في قوله: { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } { وكذلك قوله: { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ } ولكن المعتزلة الذين أنكروا صفة الكلام لم يجدوا بدا من التأويلات البعيدة، فجعلوا التكليم هنا بمعنى التجريح لأن الكلم: الجرح، فيرد عليهم بأن الله أثبتهم سماه كلاما، في قوله تعالى: { إِنِّي اضْطَقْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي } [الأعراف: 144]. هذا لا يستطيعون تأويله، حيث أثبتته لنفسه، فقال: "كلامي" كذلك قوله: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلَّمَ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } [الشورى: 51]. وقد كلم الله موسى من وراء حجاب، وأثبت أنه يكلم من وراء حجاب. الدلالة الرابعة: النداء: فالنداء لا تعرفه العرب إلا بالكلام، وقد أثبتته الله في آيات كثيرة، كقوله تعالى: { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي } [القصص: 74]. وهناك آيات في النداء غير هذه الآية؛ كقوله تعالى: { وَتَادِيبُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } [مريم: 52]. فأيات المناداة صريحة في إثبات صفة الكلام، وأنه ناداه بكلام سمعه لما ناداه، وهو على الطور، سمع كلام الله كما يشاء الله تعالى. الدلالة الخامسة: المناجاة: والمناجاة: هي الكلام الذي يكون بين اثنين لا يسمعه غيرهما، ففي هذه الآية إثباتها في قوله: { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } يعني: مناجيا، فالنجوى: الكلام بين اثنين لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْإِيمَانِ وَالْقَوَى } [المجادلة: 19]. فالتناجى، يعني: الكلام الخفي بين اثنين، فالله تعالى أثبت أن موسى نجي يعني: مناجيا لله تعالى مكلما له، فدل على إثبات صفة الكلام. فلهذه الأدلة وما يأتي بعدها، كل ذلك في إثبات أن الله متكلم، وأنه يتكلم إذا شاء، أثبت ذلك أهل السنة، وأثبتته أيضا الأشعرية، وأثبتوا أن الله متكلم، ولكن الأشعرية لما جادلوا المعتزلة اضطروا إلى أن ينكروا الكلام الحقيقي، فقالوا: هو الكلام النفسي وهو أنه كلام في النفس لا كلام حقيقي، فعيب عليهم بأن هذا نقص ولا يتم به المراد، والصحيح أن الله يتكلم كما يشاء، ولا نقول إنه يتكلم كما يتكلم المخلوقات ويحتاج إلى لسان ولهوات إلخ؛ بل منزعه عن صفات النقص، وعن صفات المخلوقين، وهكذا يعتقد المسلمون.